خَبيصـة أمــي

ما أشبه اليوم بالبارحة !عدّت هذا اليوم وسط النّهار، الشّمسُ ساطعةٌ، سكونٌ غريبٌ يكتنف المكان، حتى أن القطّة السّمراء الشّرسة قد مدّت ساقيها تحت خروبتنا، وكنت كلّما أصل البيت تأتي لتستقبلني، أو بالأحرى كي تأخذ نصيبها من الطّعام الذي أحضرته لها، ولكنّ حرارة الجوّ العالية جعلتها تزهد فيما معي، فالعطش الشّديد أو الحرارة الحالية قد أقعدها عن ذلّ السُؤال، فالحيوانات أيضاً لها كرامة يفتقدها الكثيرون، حبذا لو امتلكها من يلهثون ذلاً وراء منصبٍ أو مال.

عاد بي الزّمن قبل سنين طويلة، حينما كنت طالباً في المدرسة، في ذلك اليوم عدّت أشهق جوعاً وعطشاً، فلم أكن أمتلك مالاً يكفيني كي (أتغندر) وأتسوّق، وأشتري من مقصف لمدرسة نصف ساندويشة لم تمتلئ بالسلطات، لم تكن إلا حبة فلافل أظنّ أنها قد قليت بالزّيت مساء اليوم السابق،مع قطعة بندورة يتيمة، كما يفعل الكثير من الطلبة اليوم، الذين يشترون العديد من الأصناف، دون شكرٍ لأب أو أم، أو شعور بالرضا.

سكون هذا اليوم هو نفسه سكون قديم، والحرارة ذاتها، ولكن بلا قطة ممدّدة، عشتها قبل سنين خلت.

حيث حملتني أقدامي متعبة إلى البيت عائداً من المدرسة التي كانت في البلدة المجاورة، العرق يتصبّب منّي كعين ماءٍ أوشكت على الخراب، والجوع نهش فكري وخيالي أكثر مما آلم معدتي التي صارت تزقزق كفراخٍ اشتقن إلى أمهن.

فقد بدأت أرسم في خيالي أن هناك صحناً من الأرز تفوح رائحته خارج المنزل، يتمايل حوله صحن آخر حساء لذيذ كعروس تتنغندر يوم زفافها، أما جناحا الدجاجة ورقبتها فهي بلا شكّ من نصيبي، وظهرها الغارق بالبهار والزيت، انطلاقا من قولي لأخي الصغير(الي بوكل الظهر بنام على قهر) فهو حصة إضافية سأحصل عليها، ولا بدّ أن أمي أخرجت تلك الصينية من الطابون الذي يقف شامخاً كأبي الهول أمام بيتنا، لم يكن مصنعاً للخبز البلدي فقط، بل كان بمثابة المقهى السّياسي والاجتماعي حيث كانت تجتمع فيه أمي مع جاراتها ليناقشن موضوع دار أبو كايد الذي هجّر من أرضه، (وصرله عدة سنين بستنى في الرجعة)، وبعض حكايات الحارة، وبطولات أبو ساهر وجنونياته بحيث يضرب زوجته بمكنسة السّنام التي صنعتها زوجته من جمع الإعشاب

اليابسة من الحواكير القريبة من القرية، لأنها تأخرت في إعداد الفطور، وكاسة الشاي الثقيلة.

دارت كل هذه الصور والحكايات، وانأ أترنح بجسمي المثقل عائدا إلى البيت...

دخلت البيت متشوقاً حالماً، ولكنّي فوجئت بأشكال من الصواني الحديدية والصحون الكيشاني منثورة على أرضية غرفة الطعام، مملوءة بطعام غريب، لم أتذكر يوما أني تناولته...

-بدّي اتغدى يمّا ، ميّت جوع.

-حط زيت وزعتر وطلّك بصلة، وهيو الخبز في الباطية، تناول ارغيف، وكل.

تبددت أحلامي كلّها في تلك اللحظة، وكأن السماء أطبقت على الأرض.

-زيت يمّا؟

-خير ونعمة، أقلك: جرّب كل خبيصة، اليوم ما في طبيخ، الأسبوع الجاي انشا الله.

-خبيصة، ماهو اسمها بخلي الواحد يكش،كيف طعمها بدو يكون!...

ولكن الجوع كافر يحوّل الرجل إلى إنسان ذليل فاقدا لنخوته وشهامته كما قال المثل: الإفلاس بضيّع المرؤوة والإحساس... تناولت ملعقةً، وأكلت، ويا لجمال المذاق!

وبدأت أكل بنهم وشهية، حتى اكتفيت.

وصرت ألوم نفسي على تلك الصواني التي تشع نوراً وجمالاً، والتّي يجمّله ذاك اللون البني الفاتح، والمذاق الشّهي، التي ضيعتها من عمري ولم آكل هذه الخبيصة...

واليوم ما زلت أنظر إلى تلك الخروبة التي عشقتها وعشقت خبيصة أمي معها، علّي أجد أمي تحتها، وعلّها تحثني أن أقفز الى أعالي الشّجرة، لأني خفيف، وأنظر تارة إلى تلك القطّة التي ما زالت تتمدّد وتتمرد عليّ، لو فعل كثير مثلها، لعاشوا بكرامة واسعة، وأغناهم عن طلب الحاجة.

قلت في نفسي: عجباً أيها الزّمن راحت أمي، وبقيت الخروبة تنادي عليها كي تصنع منها تلك الحلوى اللذيذة، ولتطعمني عطفاً وحبّاً وسعادة.

لم أتنبه لنفسي إلا عندما نادتني زوجتي، من تلك البلكونة التي تطلّ على الخروبة، وقالت:

-مالك، في إيش سارح؟ اطلع من هالشووب...